﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لهذه الآية أوجهٌ من الرّبطِ مع الآيةِ السَّابقة، فهي مرتبطةٌ بفاصِلة الآيةِ السَّابقة، وبجملَةٍ توسّطت الآيةَ السّابقةَ، ومرتبطةٌ ارتباطَ تَدَرُّجٍ من الأدنى إلى الأعلى، وهذا الرَّبطُ يقوّي بيانَ العلاقةِ الدّلاليّة في الآياتِ القرآنيّة، ومدى اتِّساقها فيما بينها، وبيانُ ذلك:

الارتباطُ بالفاصِلةِ:

ارتبطَت الآيةُ بفاصلة الآيةِ السّابقة، فلمّا قال المارُّ على القرية: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]، بعد أنْ رأى من تلك المشاهدات ما رأى؛ ذكر في هذه الآية مثلًا ناصعًا لمَنْ عَلِمَ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لكنَّه أرادَ أنْ يَرَى كيفيّةَ القدرة، فهما مَثَلان مُتعاطِفان: مثلٌ لمن عَلِمَ القُدرةَ بعد أنِ استبعدَ البعثَ، فأراه الله ما أراه، ومثلٌ لمَنْ عَلِمَ القدرةَ، وطلب رؤيةَ كيفيّتها، وكِلا المَثَلَيْن مُرتبطٌ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]، وتقديمُ المثلِ الأوّلِ من بابِ تقديم الأُصولِ على الفروعِ، فإنَّ معرفةَ قدرةِ الله على كلِّ شيءٍ أصلٌ، ومعرفةُ كيفيّةِ الإحياءِ فرعٌ عن ذلك الأصل، فالعطفُ من قبيلِ عَطْفِ الفرعِ على الأَصْلِ.

الارتباطُ بالجزءِ:

ارتبطتِ الآيةُ بجملةٍ في الآيةِ السَّابقةِ، وهي قولُ مدَّعي الرّبوبيَّة: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فلمَّا لم يُجبه إبراهيمُ عليه السلام، وانتقَلَ إلى الدَّليل الآخر، كان بيانُ كيفيَّة الإحياءِ والإماتة لإبراهيم عليه السلام من الحَسَن جدًّا في هذا السِّياق، فعطف عليه هذه القصَّة؛ لِتزولَ أيُّ مشاغبةٍ حولَ إبراهيمَ عليه السلام، فإنَّ عدمَ جوابِه للنمرود قد يُثيرُ استفسارًا عن سببِ

ذلك، فكان إيرادُ هذه القصَّة من قبيل دفعِ الشُّبَه، وهذا يدلُّ على مكانةِ إبراهيم عليه السلام عندَ ربِّه، في اختصاصِه بمثلِ هذا الإيرادِ الذي يَدفعُ عنْ شَخْصِه أيَّ إيراد.

الارتباطُ التَّدريجيّ:

تَرتُّب هذه القصةِ على سابقتها يُظهِرُ مكانةَ الخليلِ عليه السلام عند ربِّه، فإنَّه لا يَسْأَلُ مثلَ هذا السّؤال إلا من غَمَرَ الإيمانُ قلبَه، وتمكَّن اليقينُ من فؤادِه، فإنَّ ضعيفَ الإيمانِ يخشى على نفسِه مثلَ هذه الأسئلة، فيتحاشاها، وليس التّحاشي عن مثلِها ديدنَ الخليل، ولمكانته من ربِّه سَأَلَ، ولحُسنِ ظنِّه طَلَب، فكان سؤالُه سؤالَ المستطلب للطّمأنينةِ، المُستجلِبِ للسّكينةِ في أنَّه الخليلُ، صاحبُ المنزلةِ الرَّفيعة، والدّرجةِ العالية، وأنَّه أكرمُ عند الله من ذلك المستبعدِ الإحياءَ بعد الإماتة؛ فأراه بناءً على طلبه، ويقّنه حفاوةً بسؤاله، فدلالة التّرتيب من قبيل التّدرج من سؤالِ الأدنى إلى سؤالِ الأعلى، ولدفع سؤالٍ قد يصدُرُ: هل يصدُر مثلُ هذا السّؤال عن مسلم؟ فكان الجوابُ من لسان إبراهيم عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَطْمَئِنَّ﴾: الطَّمْنُ: غيرُ مُسْتَعْمِلٍ في الكلام، وزيدت له الهمزة، فقيل: اطْمأَنّ الرّجلُ، واطمأنّ قَلْبُهُ، واطمأنَّتْ نَفْسُه؛ إذا سَكَنَ، واستأنس، والاسمُ: الطُّمأنينة، وأصلُه مأخوذٌ من المُتَطَأْمِنة: وهي الأرضُ المنخفضة، والمُطْمَئِنُّ من الأرض: المنخفض، والمستوطِنُ في الأرض، واطْمَأَنَّتِ الأرضُ، وتَطَأْمَنَتْ: انْخَفَضَتْ، وفيه تطامنٌ: أي: سكونٌ ووقارٌ، ويُقال: طامن ظهرَه: إذا حناه - بِغَيْر همز- لأنَّ الهمزة التي حلَّت في اطْمَأَنَّ إنَّما حلَّت فيها حِذارَ الجمع بين السَّاكنين، فمعنى الطُّمَأْنِينَةِ والاطْمِئْنَانِ: الاستقرارُ والسُّكون بعد جَوَلانٍ بسببٍ ذاتيّ، وأكثرُ ما يكون في جَوَلان الفكرِ في القلبِ، قال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾، [الأنفال: 10]، وقال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر: 27]، وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: 28]، وقال: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ [النساء: 103].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (طمن).

2) ﴿قَلۡبِيۖ﴾[1]: القلبُ: باطنُ الشّيء ولُبُّه، ويُطلَق على العقلِ والفؤادِ والشّيء المحْض؛ لخلُوصِه، وكونِه لُبًّا، فقُلُوبُ الشَّجر: عُروقُها وأجوافُها، وقَلْبُ النَّخلة: شحمتُها، ولكلِّ شيء قَلْبٌ، ويُقال للشّيء المُحوَّلِ عن وجهه إلى جهة أخرى: قلبٌ؛ لأنَّه إخراجُ باطنِ الشّيء إلى الظّاهر، كالقَليب، ثمَّ أصبح عَلَمًا على المضغة اللحميّة المعلّقَة بالنِّياط، والتصق بكل باطنٍ يتقلَّب، ولذلك ما سُمِّيَ القَلْبُ إلا من تقلُّبه وتحوُّله، وكذلك كلُّ أمرٍ يتقلَّب، فهو قلبٌ، والعرب تستعملُ لفظ القلبِ للتّعبير عن الدّاء، فيقولون: مَا بِهِ قَلَبة، أَي: ما بِهِ دَاءٌ، وَهُوَ القُلاب، داءٌ يَأْخُذ الْإِبِل في رؤوسها فيَقلِبُها إِلَى فَوق، وقال الفرّاء: معناه: ما به عِلّةٌ يُخشى عليه منها، وهو مأْخُوذٌ من قولِهم: قُلِب الرجل: إِذا أَصابَهُ وجعٌ في قَلْبه، وَلَيْسَ يكَاد يُفْلِتُ منه، وقال الطائيّ: معناه: ما به شيءٌ يُقْلقُه، فيتقلَّب من أجله على فراشه.

وأُطلق اسمُ القلبِ في القرآنِ على القوّة المدركَةِ والفَهْم والعَقْل، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، كما أُطلق على المُضْغَة اللحميَّة قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، واستُعمل فعلُ التَّقليبِ في التّحوُّل من جهةٍ إلى أخرى، والرّجوع إلى الأصْل، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: 110]، وقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ [المطففين: 31]، وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144].

3) ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: الصَّوَرُ[2]: المَيلُ والضَّمُّ وما ينتهي إليه الأمرُ مآلًا، حيث تدورُ استعمالاتُ هذه الكَلمة على هذا المعنى، فيُقال: فلانٌ يصُورُ عُنُقَه، أي: يميل بعُنُقه ووَجْهِه، والأَصْوَر: المائِل العُنُق، وعُصفورٌ صَوّارٌ: ميَّالٌ لمن يدعوه، فيُجيبه، وينضمُّ إليه، والصَّوْرُ: النَّخلُ الصِّغارُ المُتضامّ، والصِّوارُ: رِيحُ المِسْكِ، فمن يشُمَّه؛ يملْ إليه، وانصارتِ الجبالُ: انهدَّتْ، فسَقَطَتْ، والصَّيْرُورة مصدرُ صارَ يصيرُ، صِرْت إِلَى مَصِيري وَإِلَى صِيرِي وصَيُّوري، وصَيرُ الأَمْرِ: مُنْتَهاه، والصَيِّرُ: القَبْرُ، يُقَال: هذا صَيِّرُ فلَان، أَي: قبرُه؛ لأنه ينتهي إليه، فكأنَّه يميل إليه، فيُضمُّ جسده فيه مآلًا، وتصيَّرَ فلانٌ أَبَاهُ، وتقيَّضَه؛ إِذا نَزَع، ومال إِلَيْهِ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والصغاني، التكملة والذيل والصلة: (صور)، والآلوسي، روح المعاني: 2/28.

في الشَّبه، والصِّيارُ: صَوْت الصَّنْجِ وأوتاره؛ إذِ الأُذُنُ تميلُ إلى سماعه، ويُقَال للمنزل الطيّب: مَصِيرٌ؛ لأنَّ صاحبه يميلُ إليه.

ودار الاستعمالُ القرآنيُّ حول هذا المعنى، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 64]، فإنَّ تصويرَ النَّاس في الأرحام هو خلقُهم وتشكيلُهم، وجمعهم بما سيصيرون إليه، وهذا مَيْل، في مآله اكتمال الخلق، ورسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا"(1)، والصُّورة هي ما ينتهي إليه الشَّكل النهائيُّ للشَّيْءِ، ولا يبعُدُ أن يكونَ اسمُ الصُّور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [النمل: 87]، محمولًا على هذا المعنى، فإنَّ الصُّور يُمَيِّلُ النَّاس من قبورهم إلى حشرِهم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ من الله تعالى عن طلبِ الخليل عليه السلام أن يُريَه كيفيَّةَ إحياءِ الموتى؛ ترسيخًا لطمأنينة قلبِه بعدَ جولان فكره، "فإنَّ إبراهيمَ لِفَرْطِ محبَّته الوصولَ إلى مرتبةِ المعاينة في دليل البعث، رامَ الانتقالَ من العلم النظريّ البرهانيّ، إلى العلم الضروريّ، فسأل الله أنْ يُريَه إحياءَ الموتى بالمحسوس"(2)؛ ليزداد يقينًا إلى يقينه، وبيان تلك الكيفيَّة بتفصيلاتها، أمْرُ اللهِ له بأخذ أربعةٍ من الطَّير، وضمِّهنَّ إليه، وذَبْحِهنَّ وتقطيعِهنَّ، ثمَّ توزيعهنَّ بأنْ يضعَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا؛ لينظر كيف يأتينَه مُسرعاتٍ إليه بعد دعوتِه إيَّاهنَّ، فلمَّا فعل ما أمره الله به عاد كلُّ جزءٍ من هذه الطيور الأربعةِ إلى موضعه منها، ورجعتْ إليهنَّ الحياة، فأَمَره اللهُ تعالى أنْ يتيقَّن أنَّ الله عزيزٌ لا يغلبه شيء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره.

وهذا الذي رآه عليه السلام هو من ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ - وما تحتويان عليه مِن مُلك عظيم، وقُدرة باهرة؛ ليكون من الراسخين في الإيمان- الواردِ ذكرُه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75].

(1) رواه البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (3208)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2643)، ويُنظر: الراغب، المفردات: (فأد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجـه العـطف كونه مثالًا ثالثًا لقضيّة ولاية الـذيـن آمـنـوا، ومـثـالًا ثـانـيًا لـقـضيّة المـرور على القرية

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معطوف على الآية السابقة: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، على أنّه مثالٌ ثانٍ لها، ومثالٌ ثالثٌ لقضية قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 257] الآية؛ فالتقدير: أو هو كإبراهيم إذ قال رب أرني.... إلخ. فإن إبراهيم لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ الوصولَ إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رامَ الانتقالَ من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس[1].

علّة تقديم آية المارّ على هذه الآية:

بـيـان الـتـقـديـم أنّـه تـعـجّـبٌ من الإحـيـاء بـعـد الموت، وأما قصة إبـراهـيـم فـهـي سـؤال لكيفية إراءة الإحياء

وقدّمت آية المارّ ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: 259] على آية إبراهيم هذه، وإن كان إبراهيم مقدّماً في الزمان على المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت، وإن كان تعجب اعتبارٍ فأشبه الإنكار، وإن لم يكن إنكاراً فكان أقرب إلى قصة النمرود وإبراهيم، وأما إن كان المار كافراً فظهرت المناسبة أقوى ظهور. وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء، ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به النمرود[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

وجه الاستغناء بالمذكور، وحذف تتمّة القصّة؛ لأنـهـا مـدركـةٌ بالبداهة

في قوله تعالى إيجاز بحذف تتمّة القصّة؛ إذ أوردت أوامر الله تعالى، وحذفت تتمّة القصّة من غير تعرّض لامتثال نبي الله إبراهيم عليه السلام لها؛ لأنّ ذلك مدركٌ بالبداهة[3].

سرّ اختيار عنوان الرُّبوبيّة دون الألوهيّة:

وبدأ السؤال بكلمة ﴿رَبِّ﴾ التي تفيد عنايته تعالى بعبيده وتربيته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/403.

لعقولهم، وأرواحهم بالمعارف لتكون ثناءً، وحسنَ استلطافٍ، واستعطافٍ أمام الدُّعاء، أي أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى، ولينـاسب قولَهُ للنمرود ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لأن الربّ هو الناظر في حاله، والمصلح لأمره[1].

وجـه الافتتاح بلفظ الربّ ليُسبق الدعاء بالثناء والاستعطاف

لمَّا كان إحياءُ الموتى مظهرًا من مظاهر الخلقِ المتعلِّقة بالرُّبوبيّة، ناسَبَ الدُّعاءُ بها، فقال عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ الدَّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلِّقٍ بالإيمان.

في اختيار لفظ الربوبية دليلٌ على أنَّ الدّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلِّقٍ بالإيمان

نكتة حذف ضمير المتكلّم المضاف اليه:

وحذفت ياء الإضافة من ﴿رَبِّ﴾ اجتزاءً بالكسرة، وهي اللغة الفصحى في نداء المضاف لياء المتكلم[2]. وفي هذا الحذف تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة ما يدعو المؤمنون ربّهم[3]

في حذف الضمير تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة دعائهم به

بلاغة حذف ياء النداء:

وحذف حرف النداء (يا) في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ للدّلالة عليه[4].، وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه، ولذلك لم يأتِ في القرآن ياء النداء مذكورًا مع (رب) إلا في موضعين، مع أنّ هذا النداء ورد في القرآن زهاء الألف مرّة، والموضعان اللذان ذُكِرَ فيهما حرف النداء (الياء) كان علّةُ ذِكْرِهِ استشعارَ المنادى البعدَ عن ربّه، لا بعد ربّه عنه[5].

للدّلالة عليه وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه

سِرُّ الاستِفهامِ بكيفَ:

جاء السؤالُ على لسانِ المارِّ على القرية الخاوية على عروشها بأنّى، أمَّا هنا فجاء بكيف، تعيينًا لمعناها لا تأوُّلًا، فيُسألُ عن الفرق بين الاستعمالين؟

تعيينُ الاستفهامِ عن كيفيّة أمرٍ متقرِّرٍ عند السّائل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308، ورضا، تفسير المنار: 3/45.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.

ففي الآية المتقدِّمة جاء الاستفهام بأنَّى المحتملةِ لمعنى الكيفيّة والوقت؛ لاشتمالها على المعنيَيْن: الكيفيّةِ أصالةً، والوقتِ تبعًا، وهذا ما يقوِّي الاستبعاد الحقيقيّ عند السّائل للإحياءِ، بينما في هذه الآية فجاء الاستفهام بكيف؛ لأنَّ السَّائلَ متَيَقِّنٌ بأنَّ للبعثِ وقتًا آتيًا، لكنَّه يجهلُ الكيفيّة، فأراد معرفتَها تشوُّفًا لأمرٍ غيبيٍّ، وهذا ليس بمستَغرَبٍ عن شخص إبراهيم عليه السلام، الذي بحث بتجرُّدٍ عن الله تعالى، فلاقَ به السّؤالُ بما لا يليقُ بآحاد البشرِ، ممَّن يُسلِّمون لاعتقادات آبائهم.

و"الاستفهامُ بكيف إنَّما هو عن حالِ شيءٍ موجودٍ متقرِّر الوجودِ عند السَّائل . . وكَيْفَ في هذه الآية إنَّما هي استفهامٌ عن هيئةِ الإحياءِ، والإحياءُ مُتقرِّرٌ"[1] لدى السَّائل، وإنَّما سألَ؛ ليَعلمَ أمرًا يرغب في معرفته كلُّ مؤمنٍ، وليعلمَ مكانتَه عند ربِّه، فيطمَئِنَّ قلبُه بذلك، لاسيَّما أنَّ "الفِكرَ في صورة الإحياءِ غيرُ محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكِّر فيها، بل هي فِكرٌ فيها عِبَرٌ، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكرُه في صورة الإحياء"[2]، والذي أثارَ عنده هذا السُّؤالَ قولُ النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258].

إيثارُ صيغةِ الحالِ على الاستقبال:

أفـادت صيغةُ المـضـارعِ طَلَبَ تصويرِ المشهدِ فـي الـزَّمـن الحاضر

في قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ جاء التّعبيرُ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على الحال، ولم تُضَف إليه السِّين الدَّالةُ على الاستقبال؛ لتمحُّض طلبه عليه السلام في رؤية الكيفيّة، مع تجرُّده عن التّفكير في المستقبل، فهو غيرُ معتنٍ بالسّؤال عن الوقت، لرؤيته يقينًا قلبيًّا، فأفادت صيغةُ المضارع طلبَ تصويرِ المشهدِ في الزَّمن الحاضر.

أثرُ البلاغةِ القرآنيّةِ في السّنّة النبويّة:

لَمَّا سألَ إبراهيمُ ربَّه كيفيّةَ إحياءِ الموتى؛ أثارَ ذلك سؤالًا: فماذا قال الله له؟ فكانت الجملةُ: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان أنَّ الله سبحانه وتعالى أرادَ تقريرَه على سببِ سؤاله؛ لنفي أيِّ مَظِنَّةٍ قد تخطر في فكرِ واهمٍ، ولذلك كان الجوابُ مزيحًا لأوهام الأفهام:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾، على طريقة الاستئناف البيانيّ كذلك، فكان مقصودُ السُّؤال والجواب دفعَ الشبهات، وتعليمَ النَّاس حسنَ الظنِّ بأنبياء الله تعالى، كما قال ﷺ: "نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ؛ إذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾"[1]، وهذا من أثرِ البلاغة القرآنيّة في تقرير مسائل السُّنّة النبويّة.

دفعُ الشُّبهاتِ عن أنبياءِ الله تعالى، وتعليمُ النَّاسِ حسنَ الظّنِّ بهم

توجيه معنى الاستعجاز في جملة الاستفهام:

الظاهر في استعمال صيغة ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ في السؤال عن الكيفية، ويحتمل استعمالها هنا لمعنى الاستعجاز؛ نحوَ أن يدّعي مدّع أنه يحمل ثقلًا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله، فتقول له: أرني كيف تحمل هذا؟ فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم ﷺ مبرّؤٌ منه؛ أراد بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أن ينطق ﷺ بقوله: بَلى آمنت؛ ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظيّ في قوله (أرني كيف تحيي الموتى)؛ ليكون إيمانه مخلصًا، نصّ عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهمًا لا يلحقه فيه شك[2].

وجه الاستعجاز في الجملة أنْ يأتي جواب الاستفهام دافعًا لاحتمال الشّكّ

بلاغةُ الجوابِ ببلى:

الهمزة للتقرير، أي: لتقرير المنفي، أو لإنكاره، والمعنيان متقاربان في المآل، والواو للعطف، عطفت الجملة المنفيّة (لم تؤمن) على جملةٍ مقدَّرةٍ، أي: "ألم تعلمْ، ولم تؤمنْ بأنَّي قادرٌ على الإحياء كيف أشاء، حتَّى تَسْأَلَنِي إراءتَه؟"[3]، فالتَّقرير للجملة المقدَّرة المنفيَّة، والمعطوفة عليها، فلمّا قال ﷺ: ﴿بَلَىٰ﴾ دون نعم، وقعَت

جمع جوابُ الخليلِ بين الإقرارِ المستفهَمِ عنه بالهمزةِ، ونفيِ نقيضِه

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (4537).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/200.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/256.

جوابًا للجملة الاستفهاميّة المنفيّة، أي: بلى آمنت، وهذا أبلغُ ما يكونُ عليه الجوابُ؛ فأقرَّ بالإيمانِ المستَفهَم عنه بالهمزة، ونفى نقيضَه المنفيَّ بلَمْ.

بلاغةُ الحذفِ:

حضورُ الجواب وإيجازُه دليلُ القرار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عطفت الجملة على جملةٍ مقدَّرة واقعةٍ في جواب بلى، والتَّقدير: بلى آمنتُ، "ولكن سألتُ ذلك إرادةَ طمأنينة القلب"[1].

أو نجعل اللامَ متعلِّقةً بمقدَّرٍ من السباق، تقديره: أَرِني؛ ليطمئنَّ قلبي.

وهذا الإيجاز بالحذف بليغٌ، وهو مقصودٌ لذاته، فإيجازُ الجواب وسرعته يدلَّان على استقرارِ الإيمانِ وطمأنينةِ قلبِ صاحبه، فإنَّ حضورَ الجوابِ دليلُ القرار.

دِقَّةُ اختيار لفظ الطّمأنينة:

بيانُ أنَّ الطّمأنينةَ المقصودة هي طمأنينةُ فكرِ القلب لا اعتقادِه

من لم يقف على دقائقِ البلاغةِ، وحسنِ النّظم، ودقَّةِ الاختيارِ، لم يفقه المعنى المُجاد، ولم يَعِ الحالَ المُراد، من ذلك اختيار لفظ الطّمأنينة، "فإنْ قلت: كيف قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ وقد علم أنَّه أثبتُ النَّاس إيمانًا؟ قلت: ليجيبَ بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسَّامعين"[2]، أي: ليزولَ عن قلبه عليه السلام الفكرُ في كيفية الحياة؛ لأنَّه إذا شاهدها؛ سَكَنَ قلبُه عن الجَوَلان في كيفيّاتها المتخيَّلة، وتعينت بالتَّصوير المشاهد، وجاءت الآيةُ مطابقةً لسؤاله؛ لأنَّه شاهَدَ صورةَ حياةِ الموتى[3]، فمعنى الطَّمأنينةِ المطلوبة: هي سكونُ القلبِ عن التَّفكُّر في أمرٍ غيبيٍّ جائزٍ في حكم العقلِ التّفكر فيه؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/309.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/308.
(3) ابن المنير، الانتصاف: 1/308.

لأنّ طلبه عليه السلام "طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية لا طلبٌ في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان"[1]. ومن هنا تندفع الإشكاليّات؛ إذِ الطَّمأنينةُ المطلوبةُ هي طمأنينة فكر القلب، لا طمأنينةُ اعتقاده، والأوّل لا يصْدُرُ إلا عن مكتمِلِ الإيمان، بخلاف الثَّاني، فأثبَتَتِ الآيةُ مزيدَ مدحٍ وثناءٍ للخليل عليه السلام.

بيان المجاز في لفظ الطمأنينة:

وجه المجاز إطلاق الطمأنينة على استقرار العلم في النفس

قال ابن عاشور: إنَّ "حقيقة (يطمئن) يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس، وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد، وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويًا للحقيقة، يقال: اطمأنَّ بالُه واطمأنَّ قلبه"[2].

نكتة نسبة الاطمئنان إلى القلب لا إلى الفكر:

المراد بالقلب العلم؛ لكونه لا يضطربُ عند الشكّ وإقامة الدليل

قال ابن عاشور: "والقلب مراد به العلم إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به وقد دله الله على طريقة يُرى بها إحياء الموتى رأي العين"[3]؛

التّناسب بين الألفاظ:

إيقاعُ التّصوير باستعمال لفظين في بيان معنًى واحد

يقع التّناسب بين الألفاظ كما يقع بين الجمل والآيات، فلفظ القلب يناسب لفظ الطَّمأنينة، ويُناغمه، ذلك أنَّ الطَّمأنينة هي السّكينة بعد الجولان، والقلب ملحوظٌ فيه معنى تقلُّب الفكر وجولانه، فإذا زال جولانُ الفكر؛ سكَنَ القلبُ، واستقرَّ، فكان ذلك

(1) رضا، تفسير المنار: 3/46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

طمأنينته، وفي هذا التَّناسب تصويرٌ بديع للقلب، فكأنَّه قد استقرَّ في مكانه منحنيًا منخفضًا آخذًا موقعَه بعد أن جالَ، وثارَ، وهذا غاية ما يكون عليه الاستقرار، استقرارُ الحالِّ في المحلِّ، ومطابقةُ الحزِّ بالمحزِّ، وهذا برهانٌ أكيدٌ على أنَّ للقلب مكانًا يطمئنُّ فيه، بعد أن يشبَعَ من غذائه الفكريِّ، ورِوائه الإيمانيِّ.

بلاغةُ اقترانِ الاستئنافِ البيانيّ بالفاءِ الفصيحة:

استدعاءُ الفكرِ للتَّجاوبِ مع النَّظم، وتدبّرُ المشهدِ الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة

وقع قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا أجابَه ربُّ العزةِ؟ وصُدِّرَ مقولُ القولِ بالفاء الفصيحة مفصحةً عن شرطٍ مقدَّرٍ محذوف[1]. تقديره: إن أردت رؤيةَ ذلك؛ ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾، وتقديرُ المحذوفاتِ في القرآن الكريم دليلٌ على أنَّ ثَمَّ استدعاءً للفكر في التَّجاوبِ مع النَّظم، لحسنِ تدبّرِ المشهد الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ التبعيضيّة:

حكمةُ تعدّد الطير واختلافه دفعُ أنْ يكون إحياء بعضها أهون من بعض

تبعيضيّة ﴿مِّنَ﴾ إشارةٌ إلى اختلاف أنواع الطّير: "وجيء بمن للتبعيض للدَّلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع"[2].

وحكمة التَّعدد، والاختلاف، والتنوّع في الطّير الزيادةُ في تحقّق أنَّ الإحياء لم يكن أهونَ في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عُدِّدَتِ الأنواع.

علّة جعلها أربعةً لدفع الظن بأنّ لبعض الجهات مزيدَ اختصاص بتأتّي الإحياء

وجعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يُظَنَّ أنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتّي الإحياء.

وعلّة جعلها أربعة أنّها أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

ويجوز أن المراد بالأربعة: أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر، أي: خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهن[1].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾:

الـطَّـيْر أجـمـعُ لـلـخـواصِّ الـحـيـوان، وأكـثر نـفـورًا مـن الإنـسـان؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، ولمشاكِلة المعجزة لهمَّة ابراهيم عليه السلام

لسائلٍ أن يَسألَ عن سبب تخصيص الطَّير بالذِّكر دون بقيّة المخلوقات؟ والجواب؛ أنَّ الطَّيرَ أقربُ إلى الإنسان باعتبار طلبه المعاشَ والمسكنَ؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث: "لو أنَّكم كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله؛ لرُزِقتُم كما يُرزَق الطَّير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا"[2]؛ ولأنَّ الطَّيْر أجمعُ لخواصِّ الحيوان، والطَّير أكثر نفورًا من الإنسان في الغالب، ولَا تستأنس به وتطير عند مجرد رؤيته؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، وفي دعوتها مزيدُ ظهور القدرة؛ لأن تحويلهن إليه بيسر لا يكون إلا بتأليف من الله العلي الخبير؛ ولأنّ الطير سَهْلُ الطّواعية لما يُفعل به من التّقطيع والتّجزئة؛ ولأنَّ من صفته الطيران في السَّماء، وكان من هِمَّةِ إبراهيم عليه السلام المَيْلُ إلى جهة العُلوِّ والوصول إلى الملكوت، فكانت معجزتُه مشاكِلةً لهمَّتِه[3].

توجيهُ القِراءات:

صـحـةُ المـعـاني المُـتـوارِدَة تـزدادُ جـمـالًا وقـوَّةً بردِّها إلى معنىً كليٍّ واحد

اختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾، فقرأ أبو جعفر وحمزة وخلف ورُوَيْس بكسر الصَّاد، وقرأ الجمهور بضمِّها[4]، وحمل علماء التَّوجيه القراءتين على معنَيَي الميلِ والقطع، فمن قدَّر أنَّ معنى ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: أَمِلْهُنّ، وضُمَّهُنَّ، حذَفَ من الكلام معنى التقطيع، والمعنى: أَمِلْهُنّ، فقطعهنّ، فحذف لدلالة الكلام عليها، فتكون الفاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.
(2) سنن الترمذي، حديث رقم: (2344).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/28، ورضا، تفسير المنار: 3/46، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/232.

على هذا فصيحةً، ومن قدّر: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾، بمعنى: قطّعهنّ، لم يحتج إلى إضمارٍ، كما احتاج في الوجه الأوّل[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَصُرْهُنَّ﴾:

الـجـمـعُ بين معنَيَيْن مرادَيْن بإيجازٍ بديع

لهذا التَّعبير قليلِ الاستعمال سرٌّ لمن تدبَّر السِّياق وتأمَّله، فقد جمع معنَيَيْن اثنين، وهما الإمالة والقطع، أمَّا الإمالة؛ فهو إمالةُ الطَّيرِ المأخوذِ وتربيتُه بحيث يصيرُ مائلًا لمَنْ صيَّره، وجعل منتهى أمره إليه، ومعنى القطع أن يصبحَ الطيرُ قطعةً واحدةً كقطيع الغنَم، فيكون المعنى: فَأَمِلْهُنَّ إليك بحيث يكنَّ قطعةً واحدةً، فجمع هذا الفعل ذينك المعنَيَيْنِ بإيجازٍ بديع، فإمالة الطّير تكون ابتداءً، وتصييره قطعة واحدةً يكون انتهاءً، فنبَّه بهذا التَّعبير على الأمرين، وهذا سرُّ إيثار هذا اللفظ على غيره.

توجيه اختلاف تفسير لفظة: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾:

اختلف المفسِّرون في معنى ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: فذَهَبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّه محمولٌ على تقطيع الطَّير، وذهب أبو مسلم ومحمّد رشيد رضا[2] تبعًا له إلى معنى الضَّمِّ والجمع، وحمل الكلام في الآية على أنَّه مَثَلٌ محسوسٌ لإحياء الموتى، ومعناه: خذ أربعةً من الطَّير، فضُمَّها إليك، وآنِسها بك حتّى تَأنَس، وتصيرَ بحيث تُجيب دعوتَك، فإنَّ الطُّيور من أشدِّ الحيوان استعدادًا لذلك، ثمَّ اجعل كلَّ واحدٍ منها على جبلٍ، ثمَّ ادعُها؛ فإنَّها تسرِع إليك، لا يَمنعُها تفرُّقُ أمكنتِها من ذلك، كذلك أمرُ ربِّك، إذا أرادَ إحياءَ الموتى؛ يدعوهم بكلمة التكوين، فيكونون أحياءً، وردُّه على الجمهور يتلخَّص بالآتي:

الأوّل: المشهورُ في اللغة في قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أَمِلْهُنَّ، وأمَّا

(1) الفارسي، الحجة: 2/389-392.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/47.

التقطيع والذبح؛ فليس في الآية ما يدلُّ عليه لغةً أو سياقًا؛ فكان إدراجُه في الآية إلحاقًا لزيادةٍ بالآية لم يدلَّ الدَّليلُ عليها.

الثَّاني: لو كان المراد بـ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: قطِّعهنَّ؛ لم يقُلۡ: ﴿إِلَيۡكَ﴾، فإنَّ ذلك لا يتعدى بإلى، وحمل الكلام على التَّقديم والتَّأخير من غير دليلٍ ملجئٍ إلى التزامه خلافُ الظَّاهر.

الثَّالث: الضَّمير في: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ عائدٌ إليها لا إلى أجزائها.

الرَّابع: فواتُ مقصودِ الطَّلب، فإتيانُ الطُّيور بعد تقطيعها وتفريقِ أجزائها في الجبال لا يقتضي رؤيةَ كيفيَّة الإحياء؛ إذْ ليس فيها إلا رؤيةُ الطُّيور كما كانتْ قبل التَّقطيع؛ لأنَّ الإحياءَ حَصَلَ في الجبال.

الخامس: العطف بثُمَّ- وهي تفيد التّراخي الزّماني- يُرشِّح جعل الأمر في ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾ للتّربية والضمِّ والجمع، فإذا حصل ذلك، جَعَلَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا، أي: من هذه المجموعة.

السَّادس: هذه الآيةُ نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143].

السَّابع: فاصلةُ الآية ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ متناسبةٌ مع كون المذكور مثلًا لإراءة كيفيَّة إحياء الموتى.

ومن هنا فإنَّ قول الجمهور تردُ عليه أسئلة واستشكالات لغوية وبيانيّة لا ترِدُ على قول أبي مسلم، وإن كان لقول أبي مسلم من عَيْبٍ؛ فهو مخالفتُه لرأي جماهير المفسِّرين، وهذا ما يوقع في الحرجِ والضِّيق، وتوجيهُ بلاغةِ الآية على قول الجمهور فيه نوعُ اعتسافٍ؛ لذا كان من الحكمة تفسير الآية بلاغيًّا بما يتوافق مع رَأْيِ الجمهور، بما يحفظ للنّظم جمالَه، ويُقيم لقول الجمهور احترامَه.

فائدة ضمّ الطير إلى نفسه عليه السلام:

ومعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها، ليتأملها ويعرف أشكالها، وهيآتها،

الأمـر بـإدنـاء الـطـير ليتأمل هـيـآتـهـا فـلا تـلـتـبس عليه بعد الإحياء

وأحوالها حتى يعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه؛ فلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك. ولذلك قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ولم يقل: (طيرانًا)؛ لأنه إذا كانت ساعية كانت أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة. والله أعلم[1].

وجه تعدّد الجبال:

تـعـدّد الجبال تـقـويـةٌ لتفرّق أجـزاء الـطـير، ومـدعـاةٌ لصعوبة تصوّر الأمر

وذكر ﴿كُلِّ جَبَلٍ﴾ يدل على أنه أمر بجعل كل جزء من أجزاء الطير على جبل لأن وضعها على الجبال تقوية لتفرق تلك الأجزاء فإنها فُرِّقَت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسرة التناول[2]، وفي هذا زيادة استصعاب شأن الجمع بعد التفريق؛ فجمعُ الأجزاءِ من مواضع متفرّقة شديدة الوعورة، وصعوبة المسلك أصعب من جمعها من مكان واحد.

نكتة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفـاد الـعـطـف بـ (ثـمّ) الـتـراخـي الـذي يقتضيه إمـالـة الـطـيـور وتأنيسها

والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يدلُّ على التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها على أن لفظ صرهن يدل على التأنيس، ولولا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن واجعل على كل جبل منهن جزءًا، ولم يذكر لفظ الإمالة إليه، ويعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ جعلها على الجبال[3].

سرّ التعبير بلفظ السعي:

وجـه الـتـعـبـير بـلـفـظ الـسـعـي هنا جعلها آية على حياة جديدة غير الأولى

السعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة، لئلا يظن أنهن لم يمتن تمامًا[4].

ولفظ السعي أثبت للصورة الذهنية عن الحياة من الطيران؛ وذلك لمشابهتها فعلَ البشر.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/201، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/49.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.

سرّ وصف الطير بوصف العاقل:

وصـفـت الـطـير وصـف الـعـاقـل لأنـهـنّ دُعـين فأجَبْنَ

في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وصف للطير بصفة العاقل بقوله ﴿ٱدْعُهُنَّ﴾، و﴿يَأْتِينَكَ﴾؛ وذلك لأنهنّ دُعينَ وفقهنَ الدّعوة، ولبّينَها. فنزلت منزلة العاقل لقيامها بما يقوم به العقلاء[1].

مناسبة الفاصلة لسياق الآية:

الإقـرار بالإحياء بـعـد المـوت مـنـاسـبٌ لـذكـر العزّة والحكمة

جاءت فاصلة الآية: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في محزِّها ومِطبقها، وهي المناسبة لسؤال إبراهيم عليه السلام، ولا يَرِدُ هنا أن يقال: لِمَ لم يذكر القدرة، كما تقدَّم في قصَّة المارِّ على القرية؟ ذلك أنَّ القصَّة المتقدِّمة في استبعاد الإحياء بعد الموت، بينما هنا؛ فهي في الإقرار بالإحياء بعد الموت، فناسب ذكر العزة والحكمة؛ لأنَّ الله لم يُرِ الخليلَ ما أراه إلا بعزته وحكمته، وجاءت لإعلام النَّاس أنّ الإراءة كانت صادرةً عنِ العزَّة والحكمة، فذكرُ ذَيْنك الوصفين هو المناسب بالمقام.

وجـه المـنـاسـبـة أنّ الـحـكـمـة مـشـروطـةٌ بالإتقان

"الحكمة مشروطة بالإتقان وهو سأل عن كيفية الإتقان فأخبره أنّه إذا علم كيفية الإتقان فلا يسأل عما وراء ذلك، فَإنّ اللّه عَزِيز حَكِيم لا يُمانَع ولا يُعانَد في فعله، فإذا تدبّر الإنسان في ملكوت الله وقدرته على الأشياء وخلقه لها، فلا يتدبّر فيها وراء ذلك لئلا يجرّ به تدبيره إلى الكفر وفساد العقيدة"[2]

بلاغة توكيد الخبر:

لتـنـزيـل سـؤال ابـراهـيـمَ عليه السلام مـنـزلـة المُـنـكِـر بحسب الظاهر

أُكِّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتنزيل سؤال ابراهيمَ عليه السلام: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ منزلة المُنكِر بحسب الظاهر، وهذا من سنن العرب أن تهجر جانب المعنى أحيانًا إلى جانب اللفظ، وتهجر جانب اللفظ أحيانًا إلى جانب المعنى، وفاق

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/318.

مقتضيات الأحوال[1]. وفي ذلك عظة لخالفيه بإدراك عظيم قدرة الله الموجبة لسلامة التفكير، وحسن الظن به جلّ وعزّ وتعالى. وإنْ لم يحصل منه ﷺ سوء ظنٍّ، وشكٍّ حاشاه من ذلك.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّمأنينة والسّكينة:

تشابهت لفظتا الطّمأنينة والسَّكينةِ في الاستعمال اللغويِّ والقرآنيّ، فيتَّفقان بأنَّهما يحصلان بعد تحركٍ وجولانٍ، ويفترقان بأنَّ الطَّمأنينة ذاتيّة، فتُطلَقُ على استقرارِ الشّيْءِ ذاتيًّا، كطمأنينة القلب والبدن، كقوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: 126]، و﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: 7]، و﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: 11] أمَّا السَّكينةُ؛ فتتحقَّقُ بأمرٍ خارجيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 248]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 26]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 26]، وهذا دليلٌ على أنَّ السّكينة تنزل على الرّسول والمؤمنين، فهي أمرٌ خارجيّ، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 103]، فصلاة النبيّ ﷺ بالنسبة للمؤمنين أمرٌ خارجيٌّ.

الفُؤاد والقَلْب:

الفؤاد: اسمٌ من أسماء القلب، لكنَّه يختصُّ بالقلبِ؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقّد، يقال: فَأَدْتُ اللّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ[2]، وهذا ملاحَظٌ في استعمال القرآن، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11]، وقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، فإنَّ ذكر الفؤاد كان باعتبار الامتلاء بالرّؤية، والمحبَّة، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: 23]، فإنّ اقترانَ الفؤاد بالسمع والبصر دليلٌ على حيويّته وفاعليّته، وقال تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: 43]؛ لفتًا لما كانت عليه في الدّنيا من الامتلاء بالكفر والمعاصي، أمَّا في

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/150.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قلب).

القيامة؛ فهي هواء، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]؛ تنبيهًا على حالها في الدّنيا، وما أدقَّ استعمال لفظ الإيقاد مع معنى التّوقد، وقد فرَّق بينهما رسول الله ﷺ حين قال: "أهلُ اليمن أرقُّ قلوبًا، وألين أفئدةً"[1]، "فوصَفَ الْقُلُوب بالرّقة والأفئدة باللين، وَكَأن القلبَ أخصُّ من الْفُؤَاد في الاستعمال"[2].

(1) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (17406)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (1775).
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (3208).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»